

الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز

بيت

الغناء والنلحين

د. عبد الرحمن عبد الحميد علي

تأصلت نزعة الزهد في مجالس (عمر بن عبد العزيز) وأخذت طابعها
المميز لها خلافته ثم ظهر لهم لون آخر ذكره المؤرخون وكأنه ذكر ليهدم ،
ويشوه هذا الاتجاه السابق الذي كان سائدا في حياة عمر بن عبد العزيز .

فما ذكره صاحب الأغاني ، وغيره يعد صورة واضحة تمام الوضوح
لشروط هذا الاتجاه وبعده تمام البعد عن حياة عمر وسيرته . ونحن في هذا
لا نريد أن نبدأ بتقريب هذا الاتجاه قبل أن نقدم مقاله التاريخ عن الغناء في حياة
عمر بن عبد العزيز .

فقد ذكر صاحب الأغاني من ألحان عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات :

خلق القلب سمادا عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها أو نهى عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

وهذا قليل من كثير ذكره صاحب الأغاني وإذا كان لنا من رأى في هذا
الاتجاه فإن من الواجب علينا معرفة حياة عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة
فقط حتى نسيره بها في إلقاء ضوء على هذا الاتجاه ، أما حياته بعد الخلافة
فهى تنفى أن تؤيده أبدا بل تنفى هذا الاتجاه نفيا قاطعا ، ويؤكد هذا جميع
الروايات المأثورة التى وردت عن حياة عمر بعد الخلافة .

يذكر الطبري (١) فيقول : لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان . دخل عليه الناس فسلموا ، فلما صلى الظهر دُعا عشرة من فقهاء المدينة فيهم (عروة بن الزبير) و (عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سليمان بن يسار) . و (القاسم بن محمد) وغيرهم . فدخلوا عليه فجلسوا . فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر لهم أنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم فخرجوا من عنده وهم يحزون .

ولذا كان هذا من (عمر) في أول لقاء له مع أهل المدينة فإذا نرجو منه بعد هذا ؟ ، فهذا الاتجاه منه يعبر عن نفسه . ويدل في وضوح على منهجه ويوضح لنا قوة سيرته هناك ، فهو لم يستدع مثلاً طائفة من شعراء الغناء ، أو قينة تغنيه أو جعل حياته مناديات على الشراب ، فهذا لم يكن ، وإنما كان أول حرار له هناك مع الفقهاء ، ورجال الدين ، فهم أولى بالاتصال من غيرهم ، ومن هذا يكون عمر قد أعلن التزامه أمامهم وحملهم مسئولية المشاركة معه في إرساء دعائم الحق الذي يرجوه . فهل فعل هذا ، واتجه — مثلاً — إلى الغناء والتلحين ؟ وهل فعل هذا ، وصاحب النداء من المغنين ، والمغنيات ؟ وهل طالب الاجتماع بفقهاء المدينة بوجه ، ونظر بوجه آخر إلى ملذاته ؟ ، ولتفت إلى شبابه وما فيه من عنفوان . صحيح أنه كان مسرفاً شديداً لإسراف في العناية بلباسه ، وكثرة عطره كما أفاض في ذلك التاريخ ، ولكن هذا الاتجاه لا يلزمه بحال من الأحوال الشغف بالتلحين ، والغناء .

فقد دعا عشرة من الفقهاء الأتقياء وألف منهم بحالاً دائماً يستشيرهم ضامناً بهذا أن تحيى أعماله كلها وفقاً لسنة الرسول (٢) هذا ما كان من عمر فهل يعمل ما نسب إلى عمر من تلحين ، وغناء يطفى على هذا الاتجاه ؟ اللهم لا .

(١) الطبري ج ٢ ص ٢١٦ ط الاستقامة .

(٢) الشعوب الإسلامية بركلان / ج ١ / ١٨٠ ط دار العلم

وقد وثق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث (١) ، ولعل همر كان يأمل إلى جعل الحياة في المدينة تسير في اتجاه مخالف لما كانت عليه من إسراف في الغناء مما شاع عن أهل المدينة ، وهذا يتمثل في وقوفه ضد الفرزدق بعد أن أنذره ألا يتعرض لأحد بمدح أو هجاء .

ولم يطن الفرزدق بعد هذا الإنذار ، وظن أن كلام همر صريحة جوفاء . فعاد إلى ما كان عليه ، ولكنه وجد من عمر تصميمًا شديدًا على إخراجهم نزعًا وهو يقول :

وأخرجني وأجاني ثلاثا كما وعدت لمهلكما ثمود (٢)

ومن هذا يتبين أن (عمر) حاول أن يغير منهج الحياة المألوف الذي كانت عليه المدينة من خروج عن المألوف في المدح ، والهجاء ، والغناء ، والشراب وغير هذا ففعل ما فعل ، وانصل بالفقهاء لأنه علم أنهم أقوى تأثيراً في النفوس ، وبهم يسود الدين وينتشر في جميع الأرجاء .

يقول الجاحظ ، ما طن في سمه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا . فأما قبلها فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرغ على فراشه وضرب برجله وطرب . فأما أن يخرج عن مقدار المرور إلى السخف فلا ، (٣) .

والمتعمق في مقالة الجاحظ السابقة يجد أنه يذكر سماع الغناء فقط ، ولم يشر

(١) تاريخ الدولة العربية / فلموزن / ص ٢٥٩ الترجمة العربية

(٢) طبقات خزل الشعراء / ابن سلام / ص ٢٩ ط المعارف محمود محمد

شاكر .

(٣) أنتاج ص ٢٣ ط الاميرية أحمد زكي باشا

إلى التلحين أو الأصوات الغنائية المنسوبة إلى عمر بما أفاضت فيه الأخبار ، وهذا يدعم نظريتنا ويؤكد وجهتنا من نفى التلحين ، والغناء لعمر بن عبد العزيز . على أن صاحب الأغاني قد ذكر الرأي المعارض لما نسب لعمر بن عبد العزيز فقال : ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ، ويقول إنها أصوات محكمة العمل لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة ، وحذق الغناء ومهر فيه وتمسك منه . ولم يوجد عمر بن عبد العزيز في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال اشتهر بالغناء ولا عرف بمعايشة أهله (١) ، ولا جالس من ينفل ذلك عنه ويؤديه . وترك صاحب الأغاني وما أشار إليه ، ونذهب إلى بن الجوزي الذي يذكر رأيه في هذا الاتجاه بدون تعليل . فقد ذكر عن الزبير بن بكار قال حدثني عمي قال أدركت الناس بالمدينة وهم يغنون لحنا ينسبونه إلى عمر بن عبد العزيز ويذكر هذه الأبيات وهي :

كأن قد شهدت الناس يوم تقسمت	خلانهم فأخذت منهم أربعا
إعارة سمع كل مقتاب صاحب	وتأني لعيب الناس إلا تتبعها
وأعجب من هاتين أنك تدعى	السلامة من عيب الخلائق أجمعا
وأنت لو حاولت فعل إساءة	وكوفئت إحسانا جحدتهما معا (٢)

وينتدع بهذا الاتجاه كاتب حديث فيقول : وحتى عمر بن عبد العزيز وهو وإلى المدينة فجدده يشتهر بسعادياته (٣)

على أن هناك فرقا آخر وهو أهم ، وهذا الفرق يتضح في النظر إلى طابع الشعر في كلا الخبرين ، فحين ننظر إلى الشعر الذي ذكره صاحب الأغاني نجد

(١) الأغاني / دار الكتب / ج ٩ ص ٢٥١

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / الجوزي / ص ٣٣٠ ط المزيدي

(٣) الشعر الغنائي : شوقي ضيف ص ١٠٨ .

غزلى يتغنى الشاعر بمن يحب ، وفيه ما فيه من الحب ، والهيام لانه صادر من عاطفة قوية ، وقلب جياش ، وبحق فقد شاع في الناس وتغنوا به ولم يبالوا أنه لعمر أم لغيره لما فيه من صنعة محكمة ، وألفاظ عذبة وخيال جميل .

وهو بهذا يخالف تمام المخالفة الشعر الذى ذكره ابن الجوزى فى طابعه وهيئته وفى مضمونه كذلك لانه قريب الصلة بما يتمثل به عمر فى حياته بل ويتصل كذلك بنهج الشعر الذى يقبل عليه عمر ، ومن هذا يظهر بحق الاختلاف بينهما ، فبينما الاول غزلى صرف نرى طابع الشعر الثانى أخلاقى أو زهدى من بعض الوجوه .

ومن هنا كان رفضنا القاطع لما ذكره كل منهما لانه لم يظهر فى حياة عمر ما يلقى على هذا الاتجاه بعض القبول

وقد ذكرنا صورة لحياة عمر فى المدينة حينما كان واليا عليها ولم نجد فيها بصيصا يدل على هذا الاتجاه أو يؤثر عنه شئ من هذا القبيل يدلنا بوضوح عن خوضه فى الغناء ، والتلحين .

فعمر كان فى شغل عن هذا ، وحياته ليست مؤهلة لظهور مثل هذا الاتجاه الغنائى أو الخوض فى الحياة الغنائية التى كانت تعج بها بلاد الحجاز آنذاك ، وعلى الإلتفات فى الغناء ، والتلحين بمعايرة الفقهاء والصالحين الاتقياء اللهم لا . وعلى هذا فكل ما ذكرنا عن عمر بن عبد العزيز سواء كان هذا من جهة غائبه أم تلحينه ، وشغفه بهما هو محض افتراء ، واختلاف واطلالمارأينا الناس إذا أرادوا النيل من أحد العظماء يتخذون بأقوال يلقونها عليهم خصومهم (١) . وعلى ما يبدو أن شخصية عمر النذيلة لم تسلم من الطعن والتجريح .

على أن كل ما ذكرناه يعتبر مقدمة فقط للمجلس الذى نذكره الآن لعمر

ابن عبد العزيز ولا أعرف كيف سمح ابن فلاح أن يذكر ما ذكره بدون أعمال
فكر فيه أو إظهار رأيه فيما يذكره (١) .

وإذا كان ابن فلاح قد ذكر هذا نقلاً عن صاحب المروج فالمسعودي
معروف باتهامه ضد بني أمية ، وهو من المنحرفين عن بني أمية (٢) فكان
على ابن فلاح أن يحص ، ما ينقل على الأقل ، ويظهر فيه بعض المعارضة
خاصة فيما ينقله عن شخصية كشخصية عمر بن عبد العزيز التي يظهر عليها هذا
الافتراء الواضح من المؤرخين .

يقول ابن الفلاح نقلاً عن صاحب المروج (٣) إن رجلاً من أهل العراق
أتى المدينة في طلب جارية وصفت له قارئة قواله . فسأل عنها فوجدتها
عند قاضي المدينة . فأناها ثم سأله أن يعرضها عليه فأبى القاضي لما علم منه
أخبارها بالفناء وهو لا يعلم بذلك . وبعد أن غنت هذه الجارية أمامه استخف
القاضي الطرب وفعل ما فعل ؟ وقال للطالب يا حبيبي انصرف فقد كنا فيها
راغبين . قبل أن تعلم أنها تقول ، ونحن الآن فيها أرغب . وانصرف الفتى
وبلغ ذلك عمر فقال قائله الله لقد استرقه الطرب . وأمر بصرفه عن عمله ،
وذهب الرجل بعد هذا إلى عمر مع الجارية ليستمعها إليه بعد حلف قبلاً أن
عمر لو سمعها فسوف يعدل عن قراره ، وأذن له عمر ثم قال للجارية قولي
فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(١) شذارات الذهب / ج ١ ص ١٢٠ ط القدسي .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ١٦٣

(٣) مروج الذهب / المسعودي ط ج ٢ ص ١٩٨ : ط السعادة .

بلى نحن كنا أهملنا فأبادنا-

صروف الليالي والجلود العوثر

ثم يستطرد فيقول فما فرغت حتى اضطرب عمر اضطراباً بيناً وأقبل يستعيدهما فلانا وقد بليت دموعه لحيته ثم أقبل على القاضى فقال: لقد قاربت فى يمينك فارجم إلى عملك راشداً (١) .

وقد حرصنا على ذكر الخبر بتمامه لانه بهذا الوضع طريق يستحق التسجيل الكامل لا التنويه والايجاز ، وقد حبك هذا الخبر حبكا بحيث يترامى للناظر أو للقارئ السطحي أنه صحيح ، ولكن الناظر بعمق إلى ماورد فى سياق هذا المجلس ينسكركه أشد الانكار لما فيه من مخالفات نوضحها فيما يأتى :

١ - أن هذا الخبر ليس له ما يعززه من حياة عمر بعد الخلافة ، وقد سبق رأى الجاحظ فى هذا الاتجاه .

٢ - الخبر بهذه الصورة أدهى إلى رفضه وسقوطه لما فيه من خروج عن المؤلف .

٣ - ليس من المعقول أو المسلم به أن يضطرب عمر هذا الاضطراب عندما سمع هذا الشعر - إن كان قد سمعه - الذى ورد فى هذا المجلس ، وإذا كان الخلفاء قبله لم يفعلوا هذا حتى معاوية حينما كان يحرك بعض أجزاء جسمه حين سماعه للغناء ، فكيف يبكي عمر هذا البكاء ؟ حتى قبل لحيته ، ويضطرب هذا الاضطراب الذى ذكرته الرواية بدون خفاء .

٤ - القصة تنجح إلى الخروج عن المؤلف خاصة فى سرد بعض ألفاظها التى لم تذكرها ، ولا أدرى لماذا كان هذا الاتجاه مع خليفة مثل عمر بن عبد العزيز .

(١) شذوات الذهب ج١/ص ١٢١ ط القدسي .

٥ — أن الشعر الذي ورد على لسان الجارية وإن كانت صورته تثير النفس، والمحافظة بما فيه من ألم، وتحسر، ونعي والأيام الخوالي، وتأكيده صروف الليالي، وفناء العمر لكل شيء، ولكن تأثيره لا يفعل في صغر مثل هذه الصورة الجارحة له .

٦ — على أنى أرى أن بكاء عمر أتى لحبك هذه القصة الطريفة لأن هذا الشعر الذى ورد فى ثنايا هذه القصة يوافق اللون الذى شاع فى مجالس عمر - مثلاً - فلا أقل من أن يستشهد به فى سماعه للغناء ويكون هذا مدخلاً لقبول سماعه والانفعال به - وبهذا يكون لا هجوم عليه لأنه من لون يوافق طبيعة عمر ابن عبد العزيز .

٧ — ما فى الخبر من تناقض فسياق القصة يعطينا أن هذه الجارية مشهورة جداً بدليل المجهى إليها من المراق بينما القاضى الذى عنده هذه الجارية لا يعلم عنها شيئاً وهو يملكها . ألا يعتبر هذا تناقضاً مكشوفاً .

٨ — ولعل ما سبق رقص هذه القصة شكلاً، وموضوعاً لأنها لا تمت فى قليل أو كثير لمنهج عمر خاصة وهو خليفة المسلمين، وبعد أن خلع عنه ثياب الدنيا باقية لا انتهاء لها ولا زوال .

٩ — وأغلب الظن أن مثل هذا الانجاء أتى من اتباع ما ذكره صاحب الأغاني فقد ذكر أن لعمر سبعة ألحان فى سماع (١) وعلى هذا سار كثير من الكتاب ممن أتوا بعده يروون ما يعم لهم من قصص فى سماع عمر للغناء كما سلف أو يذكرون بعض الألحان الأخرى التى نسبت إليه كما ذكر ذلك ابن الجوزى .

وتلحين الغناء يحتاج - فى نظرى - إلى وقت طويل، وملتق واسع عن

أصحاب هذا الفن ، وخبرة وإستعداد كبير لهذا الاتجاه ، وأن السير في طريق التلحين يفتح باباً لمخالطة أهل هذا الفن ، والشغف بهم بما يدع لهم أن يختار أحسن الألحان التي تناسب الأشعار التي يعمل فيها حتى يتحقق أخيراً الابداع الفني في المناسبة بين إختيار الشعر ، واللحن الذي يوافقه . هذا من جهة ومن جهة أخرى أن عمر لو سار في هذا الاتجاه لانشغل به ولم يوفق في الناحية الأخرى التي إشتهرت عنه وهي رواية الحديث النبوى الشريف ، فهل يتفق هذان الاتجاهان المتناقضان اللهم لا ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز حديث كثير وفقه ، وحمل عنه أهل العلم (١) .

ومن المؤسف حقاً أن يتحدع بهذا الاتجاه عالم أديب ، وكاتب بارع له نظرة الثاقبة الواضحة في عالم الأدب . أقول اتخذ هذا الأديب فوافق أولاً على نسبة هذه القصة إلى عمر ، ولم يكتف بهذا بل أدرجها بما فيها من استحسنان من عمر تحت باب التجديد ، ودقة الحس ورفاهية الذوق ، وكأنه يزعم بهذا الكشف الذي اكتشفه عن (عمر بن عبد العزيز) مشيراً بذلك إلى أنه كان يجدد حقاً في هذا الاتجاه .

وما كنت أحسب أن الناقد يحمل مثل هذه القصة دليلاً على كل ما ينسب لعمر بن عبد العزيز . سواء أكان هذا قصصاً من هذا اللون أم غيره ولى سؤال عنده وهو . لماذا ذكر الأستاذ هذه القصة وأشار إليها ثم لم يذكر شيئاً من ألحان غناء عمر باعتبارها أوضح في باب التجديد من هذه القصة ، فهل يفهم من هذا أنه ينكر هذا مثلاً بدليل عدم الإشارة إليه؟ ويوافق على نسبة هذه القصة إليه ، ولا يعتبر التلحين تجديدًا مثلاً؟ ولماذا يشبت من جانب ويغفل عن جانب آخر له صداه إن أراد الإشارة إلى التجديد (٢) .

(١) الأغاني (دار الكتب) ج ٩ ص ٢٧٣ .

(٢) المجددون في الإسلام : أمين الخولى . ص ٦٤ ط المعرفة .

وكان الاجدر بالاستاذ قبل أن يذكر هذه القصة أن يدانا على مدخل
فستطيع معه أن نقبل مثل هذه الاشياء التي لا تجوز من شخص عمر وأن يعرضها
عرضا واضحا قبل الموافقة على مثل هذا الاتجاه وتدوينه بهذه السهولة التي
عرضها في كتابه هناك .

كنت أحب أن يكون له منهج واضح في تنفيذ مثل هذه المزايم ولا يسير
وراء السابقين في كل ما يقولونه خاصة ما ظهر فيه خلط ، واضطرب كالذي
ذكرناه الآن .

ولا يصح كذلك من أي كاتب حديث أن يدلي بدلوه فيما اتجه إليه السابقون
إلا بعد أن يعمل فكره وذهنه ، ولا يجعل من كل ما يقوله هؤلاء حججا
ودعاوى لا يتطرق إليها الشك أو الاحتمال ، فهذا ما لا نرضاه ، ولا نسلم به
في كل حال ، وخاصة إذا كان في هذا الرأي ما يشير إلى البلبلة كهذا الاتجاه الذي
ذكره تحت باب التجديد .